جامعة محمد الأول الكلية المتعددة التخصُّصات الناظور	الكلية متعددة التخصصات الناظور Faculté Pluridisciplinaire de Nador	شعبة الدراسات العربية وحدة الشعر الحديث الأستاذ عبد الغني حسني

المدخل:

الشعر العربي الحديث: المفهوم والنشأة

1) النهضة العربية الحديثة وعواملها:

إن النهضة الأدبية التي نشأت في المشرق العربي وبلغت قدرا من النضج مع بدايات القرن العشرين كانت لها بوادر مبكرة وممهدات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد ساهمت عوامل متعددة في ظهور هذه البوادر، وأبرزها:

- **الحملات التبشيرية** التي كان المشرق العربي، وبلاد الشام خاصة، موطنا لها بعد نهاية الحروب الصليبية. فقد ساهمت هذه الحملات في ظهور المطبعة والمدارس الحديثة وتعليم اللغات الأجنبية ببلاد الشام منذ القرن السابع عشر، ونتج عن ذلك هجرة عدد من خريجي هذه المدارس المسيحية إلى الغرب في بعثات علمية ساهمت في الانفتاح على الثقافة الغربية. كما أن الحاجة الدينية لترجمة الكتاب المقدس إلى العربية قد عجل بدخول المطبعة إلى بلاد الشام منذ القرن السابع عشر، أي قبل أن يحمل نابليون بونابرت المطبعة إلى مصر بعشرات السنين.
- **الاستشراق:** ساهمت الحركة الاستشراقية التي شهدتها أوربا منذ القرن 18 في إحياء جزء من التراث العربي بغاية دراسته، فقام عدد من المستشرقين بتحقيق عيون الأدب العربي وطباعتها كألف ليلة وليلة ومقامات الحريري وكليلة ودمنة. وساهم ذلك في تعرف الأدباء العرب أنفسهم على تاريخهم الأدبي وفي نشأة حركة تحقيق التراث الأدبي العربي وإحيائه.

وشهدت بداية القرن التاسع تحولات أدت بشكل تدريجي إلى ظهور نهضة أدبية وفكرية شاملة، لعل أبرزها:

- **الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801):** وهي حملة قادها نابليون بونابرت، تميزت بإحضار المطبعة وانفتاح المجتمع المصري على الثقافة الفرنسية. غير أن أثر هذه الحملة على النهضة الفكرية والأدبية كان محدودا بسبب طابعها العسكري الاستعماري الذي رفضه الشعب المصري، وهو ما عجل بنهايتها السريعة ورحيل نابليون عن مصر حاملا معه مطبعته سنة 1801.
- **محمد علي باشا (1805- 1848):** تمكن السلطان محمد علي باشا، بعد توليه عرش مصر، من إحداث ثورة علمية وصناعية وفلاحية وتعليمية، حيث بادر إلى إرسال البعثات العلمية إلى أروبا وإلى إنشاء المعاهد والمدارس، فكان لكل ذلك انعكاس على الجانب الثقافي أيضا بإنشاء أول مطبعة في مصر هي مطبعة بولاق سنة 1822. وهو ما سمح بظهور الصحافة بإنشاء أول جريدة هي جريدة "الوقائع المصرية" سنة 1828. وكان من أكثر المعاهد التي أنشئت في عهد محمد علي باشا شأنا "مدرسة الألسن

العليا" التي أسسها رفاعة الطهطاوي سنة 1835، فكان لها الفضل في ترجمة عدد كبير من الأعمال العلمية والأدبية إلى اللغة العربية على يد الطهطاوي وتلامذته.

- **شوام مصر:** يطلق هذا اللقب على الشاميين الذين هاجروا إلى مصر في عهد الخديوي إسماعيل، وكان معظمهم من المسيحيين الذين يبحثون عن بلد أكثر انفتاحا، فحملوا معهم ثمار الانفتاح الذي شهدته بلاد الشام منذ فترة مبكرة في المجال الأدبي بشكل خاص. وأشهر هؤلاء من الكتّاب: زينب فواز وجرجي زيدان وفرح أنطوان وخليل مطران وسليم النقاش ومي زيادة. وكان من ثمار هذه الهجرة أن هؤلاء أتاحوا لمصر انفتاحا أكبر على الثقافة الغربية.
- **الدعوة السلفية الوهابية:** وهي دعوة دينية إصلاحية أسسها في شبه الجزيرة العربية محمد بن عبد الوهاب خلال القرن الثامن عشر، فوصل تأثيرها منذئذ إلى عدد من الأقطار العربية، ثم شهدت امتدادا واضحا خلال القرن التاسع عشر مع عدد من المصلحين السلفيين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وقد جعلت من أبرز أهدافها: تجديد الوعي الديني ومحاربة التفكير الخرافي والانفتاح على الحضارة الجديدة، فكان لذلك تأثير على المناخ الفكري والأدبي الذي شهد دعوات إصلاحية وتجديدية في مختلف المجالات.
- **دعوات الإصلاح السياسي والاجتماعي:** كانت هذه الدعوات منسجمة مع المناخ الإصلاحي الذي كان يهدف إلى تجديد مختلف مناحي الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهكذا تزعم عدد من المفكرين دعوات الإصلاح السياسي، وأبرزهم عبد الرحمن الكواكبي الذي هاجر من بلاد الشام إلى مصر، وكان يوجه نقدا لاذعا للاستبداد العثماني، فألف كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" تعرض فيه لموضوع الاستبداد السياسي. ومن هؤلاء أيضا قاسم أمين مؤسس الجامعة المصرية وأحد مؤسسي الحركة الوطنية في مصر. وقد سافر إلى فرنسا والتقى هناك بالإمامين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وتأثر بدعوتهما الإصلاحية التي انعكست على دعوته إلى تحرير المرأة وتخليصها من رواسب عصور التخلف والانحطاط، فعبر عن ذلك في كتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة.

هذه العوامل كلها، تضاف إليها عوامل سياسية تتمثل في تسلط الحكم العثماني على دول المشرق، والاحتلال البريطاني لمصر، ساهمت في ظهور نهضة أدبية جماعية كانت جزءا من نهضة فكرية شاملة، وحمل لواءها أعلام بارزون في فنون الإبداع الأدبي عامة وفي الشعر بشكل خاص.

2) الرواد الأوائل للنهضة الأدبية خلال القرن التاسع عشر:

قاد النهضة الأدبية في كل من مصر وبلاد الشام عدد من الرواد الذين كان لهم تأثير على من جاء بعدهم من أدباء.

ففي مصر برز اسم رفاعة الطهطاوي الذي كانت له مساهمة كبيرة في تطوير الحياة الأدبية بمصر من خلال إدارته لمدرسة الألسن التي كان لها فضل كبير على ترجمة الأعمال الأدبية الغربية، ومن خلال تعريفه بما وصلت إليه الحضارة الغربية بعد رحلته إلى باريس، وذلك ضمن كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، وكذا من خلال تطويره جريدة الوقائع المصرية بكتابته افتتاحيتها، وهو ما أدى أيضا إلى تطوير المقال السياسي الذي كان موضوعا لهذه الافتتاحية. يضاف إلى ذلك مساهمته

الشخصية في حركة الترجمة التي كان من ثمارها ترجمته رواية الكاتب الفرنسي فينلون "مغامرات تليماك" بطريقة يحاكي فيها أسلوب السجع في المقامة، وهو ما يتضح في العنوان الذي صاغه لها وهو "مواقع الأفلاك في وقائع تليماك".

وكان لمدرسة الألسن كذلك فضل على عدد من الأدباء الذين تخرجوا منها وتابعوا عملية التأليف الأدبي المنفتح على أدب الغرب وثقافته، ومنهم: يعقوب صَنْوَع ونجيب الحداد وعبد الله النديم ومحمد عثمان جلال.

وفي بلاد الشام برزت أسماء كان لها فضل على تجديد الحياة الأدبية وإحياء اللغة العربية، أبرزها ناصيف اليازجي وأحمد فارس الشدياق.

فقد عُرف اليازجي بسعيه إلى إحياء اللغة العربية سواء عبر مؤلفاته في اللغة والنحو والصرف، أو عبر إحياء التراث الأدبي المتمثل في شرحه ديوان المتنبي "العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب"، أو عبر اتباع منهج القدماء في الكتابة الأدبية. وقد انعكس ذلك على أسلوبه في نظم الشعر، فجاء على صورة الشعر القديم، كما انعكس على كتابته النثرية التي أحيى من خلالها أسلوب المقامة في كتابه "مجمع البحرين".

وكان أحمد فارس الشدياق داعيا إلى الإصلاح منتقدا لمظاهر التخلف في المجتمع، فجعل جريدة "الجوائب" التي كان يُصدرها من إسطنبول منذ 1860 منبرا للتعبير عن هذا النقد. وكان كذلك ميالا إلى التجديد في الأدب، دون أن يمس ذلك تمكنه الشديد من اللغة العربية. وقد عبر عن انتقاده للتقليد أحيانا بأسلوب ساخر مثلما فعل في كتابه السردي "الساق على الساق فيما هو الفارياق" الذي سخر فيه من أساليب القدماء في الكتابة الأدبية، فكان هذا النقد سببا في خصومته مع اليازجي. كما ساهم إلى ذلك في التعريف بالحضارة الغربية من خلال رحلاته إلى عدد من أقطارها كما في كتابيه "كشف المُخَبّا عن فنون أوروبا" و"الواسطة في أحوال مالطة". كما ساهم في إحياء اللغة العربية وعلومها من خلال عدد من المؤلفات أبرزها: "الجاسوس على القاموس" و"غُنْية الطالب".

وهكذا فإن أهم ما يمكن استنتاجه من استعراض جهود الجيل الأول من رواد النهضة في المشرق أن شيئا من التطور قد مس الكتابة النثرية قبل أن يصل إلى الشعر. فقد ظل الشعر طوال هذه الفترة التي تمتد إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر محافظا على أسلوب القدماء محتذيا طريقتهم، فهيمن عليه المدح التكسبي (كمدح بعض الشعراء للخديوي إسماعيل)، والمبالغة في استعمال المحسنات اللفظية، وابتعد بذلك عن المجتمع وهمومه. وعلى العموم فقد ظل الشعر سائرا على خطى النموذج المنحط من الشعر العربي القديم، ومثَّلَ هذا النموذجَ شعراءٌ أبرزهم: ناصيف اليازجي وأحمد فارس الشدياق وعبد الله النديم ومحمود الساعاتي وعبد الله فكري (انظر شعر اليازجي ضمن النصوص الشعرية لحركة الإحياء).

واستمرت ريادة محاولات التجديد في الكتابة النثرية مع الجيل الثاني من رواد النهضة ببلاد الشام خاصة، كأديب إسحق وخليل الخوري وفرانسيس مراش الذين ساهموا في تطوير النثر العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أصدر خليل الخوري أول رواية في الأدب العربي الحديث، هي رواية "وي. إذن لست بإفرنجي" سنة 1860، وبعدها أصدر فرانسيس مراش الحلبي رواية "غابة الحق" سنة 1865، قبل أن تأتي بعدها روايات أخرى، وقبل أن يؤسس جرجي زيدان للرواية التاريخية في الأدب العربي أواخر القرن التاسع عشر.

هذه المحاولات التجديدية البارزة على مستوى الكتابة السردية واكبتها بداية للتحول في مجال الكتابة الشعرية مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكان محمود سامي البارودي رائدا في تجديد مفهوم الشعر وإنشاء مدرسة تُخرجه من وضع الانحطاط، هي حركة الإحياء الشعري.

ويفضي بنا كل ما ذكرناه سابقا إلى تعريف الشعر الحديث بأنه حركة شعرية تجديدية انطلقت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع البارودي، ثم استمرت بعد ذلك من خلال ثلاثة اتجاهات أساسية هي:

- **حركة الإحياء الشعري**
- **والحركة الرومانسية**
- **وحركة الشعر المعاصر**

ويؤيد هذا قول الناقد المغربي محمد بنيس في تعريف الشعر الحديث وما شمله من حركات تجديدية: "نعود للتنبيه على أن الشعر العربي اختبر فعلين للتحديث: تحديث بعيد مؤرخ بالقرنين الثامن والتاسع الميلاديين، في العصر العباسي، من خلال ما يسمى بالبديع... وتحديث قريب تم اختياره منذ بدايات القرن التاسع عشر، اعتمادا على مفهوم التقدم أيضا. انطلق هذا التحديث الثاني مع محمود سامي البارودي، وهو يستمر إلى الآن... لذلك نترك للقديم تسمية (الشعر المحدث) التي عرفه بها النقاد قديما، ونسمي الراهن بالشعر العربي الحديث... المنطلق النظري للشعر العربي الحديث هو ميتافيزيقا التقدم... بما هو تجاوز زمني ونقدي، سواء بالعودة إلى الماضي لدى التقليدية أم بالتوجه نحو المستقبل المتخطي للماضي كما لدى الرومانسية العربية والشعر المعاصر. وهو، بذلك، معبأ، ككل، بالتصور الأروبي للحداثة" (الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها، ج1: التقليدية، محمد بنيس)